الفكر الاقتصادي في العصور الوسطى (قبل ظهور الرأسمالية)

مقدمة:

قبل بروز بوادر الرأسمالية في العصور الوسطى كانت أفكار هذه العصور امتدادا للعصور القديمة أي للفكر اليوناني (الإغريقي) والتي شملت أفكار أرسطو وأفلاطون، وهي كانت أفكار فلسفية بحتة ومرورا إلى العصور الوسطى انتقلت هذه الأفكار من الفلسفية أو اللاملموس إلى الواقعية والعملية وبالتالي تحولت إلى أفكار اقتصادية بحتة.

امتدت مرحلة العصور الوسطى من القرن 5 م إلى القرن 15 م، اتسمت هذه المرحلة بالوجود المتميز للإمبراطورية الرومانية، كما تميزت هذه الفترة بظهور النظام الإقطاعي الذي ولد واستمر حتى القرن 15م.

ظهور النظام الإقطاعي:

1. نشأته: ظهر النظام الإقطاعي في دول أوروبا الغربية على أيدي الرومان حيث تم استيلاء بعض الجماعات آنذاك على الأراضي الزراعية وتم توزيعها بينهم، كما سيطر الرومان على بعض الدول أدى كذلك إلى سيطرة بعض الغزاة الأجانب على مناطق مع استيلائهم على الأراضي المهجورة وتوزيعها بينهم، وتكونت بذلك طبقة أرستقراطية مالكة للأرض على المساحات الزراعية، زيادة على ذلك لنقص الأمن في الفترة ما بين القرن 5 م والقرن 9 م، اضطر بعض الفلاحين للالتجاء إلى حماية النبلاء بالانظمام إليهم فاستولى بذلك الغزاة على هذه القرى في تلك المناطق فأصبح كل الفلاحين بمثابة عبيد يعملون عند الأسياد وأصبح أسياد القرى هم أنفسهم الرؤساء السياسيين، وسادت العبودية والإقطاعية في النشاط الزراعي الذي كان سائداً في العصور الوسطى مع تخلف الصناعة والتجارة وقتها.

2. جوهر النظام الإقطاعي: ينقسم المجتمع الإقطاعي إلى مالكين وأقنان أو عبيد، حيث يلتزم الأقنان اتجاه الإقطاعي أو المالك بالآتي :

- العمل المجاني (السخرة) لزراعة أرض الإقطاع.
- العمل الإضافي في مواسم الحصاد وجني المحاصيل (مرتين في السنة).
- الآلات والأدوات والحيوانات التي تستمر في أوقات الحصاد والجني يقع عبئها على الأقنان.
- يقدم الأقنان كجزء من المحصول العيني إلى المالك من ناتج زراعي وحيواني.
- بعض الإتاوات والضرائب في المناسبات كالزيارات والزواج والميراث يدفعها الأقنان للمالكين.

3. خصائصه: من خصائص النظام الإقطاعي هو تطور الإنتاج وأساليب الزراعة، فظهرت أساليب جديدة زادت في إنتاجية الزراعة والتسيير واستحداث بذور جديدة والتوسع في تربية المواشي والرعي وانتعش مجال الحرف (الحدادة، الخياطة وصناعة الأزرار والسجاد والتجارة...) التي كانت تقوم على النشاط الزراعي، بصفة أساسية أدى ذلك إلى ظهور فئة جديدة هي فئة الحرفيين (الذين يعملون على تحويل المواد الأولية).

في أواخر القرون الوسطى تغير مفهوم الإقطاع ليصبح اقتطاع السيد جزء من الناتج العيني للمزارع ليأخذه دون إكراه لكن بالقانون، وكان هذا بداية لزوال النظام الإقطاعي إلى أن ظهرت في أواخر القرن 12م فئة الحرفيين والصناع الذين بدؤوا يشكلون طوائف ونقابات تحمي مصالحهم، فسميت هذه المرحلة الطائفية وهي المرحلة التي سبقت النظام الرأسمالي.

ظهور النظام الطائفي وزوال النظام الإقطاعي:

استمرت هذه المرحلة من القرن 16م إلى القرن 18م أي قبيل الثورة الصناعية، وكان النظام الطائفي يقوم على أساس الدفاع عن حقوق المهنيين والحرفيين لكنه كان يقوم على شروط قاسية تحد من حرية الأفراد، حيث:

- عضوية الحرفي أو الصناعي في نقابة شرط أساسي (كل نشاط كان يختص بنقابة).
- يجب أن يكون لكل حرفي شريك في المهنة، ويجب أن تتوفر فيه مميزات المهنة مما كانت (الشروط) تدعم النظام الاحتكاري في المهن.

خلاصة الأفكار والوقائع الاقتصادية في العصور الوسطى:

المفكرين في هذه المرحلة كانوا متأثرين بالكنيسة وكانوا يحاولون التوفيق بين الدنيا والدين، أهم هؤلاء المفكرين (سان توماس 1226-1274)، وأهم الأفكار السائدة آنذاك:

- يخلطون بين الثروة والنقود.
- تحريم الفائدة (النقود لا تلد)، وهذه كانت امتدادا لأفكار أرسطو.
- إدانة العبودية والإقطاعية بشدة.
- تدعيم الفوارق الاجتماعية بين الأفراد.
- الاعتراف بحق الملكية الخاصة للأفراد وحقهم في تملك العقارات والثروات.
- الاعتراف بالسعر العادل (السعر الذي يحقق به البائع الربح ولا يضر به المشتري)
- نجد أن الأفكار الاقتصادية في العصور الوسطى تأثرت بالأفكار الفلسفية للعصور القديمة عند الإغريق واليونان (أرسطو-أفلاطون).

الفكر الاقتصادي عند العرب:

ابن خلدون: جاء اهتمام ابن خلدون بتفسير الظواهر الاقتصادية من اهتمامه بالعمران البشري، واستند على أن النشاط الاقتصادي هو الركيزة الأساسية للمجتمعات البشرية وقسم هذا النشاط إلى:

1. النشاط الزراعي.
2. النشاط الصناعي.
3. نشاط المعادن.
4. النشاط التجاري.
5. باقي النشاطات (رعي، صيد، ...)

كما نادى بضرورة تقسيم العمل في أي نشاط أو مجال اقتصادي، كما مهد للفكر الكلاسيكي بقوله أن العمل هو أساس القيمة والمنفعة للسلع والخدمات.

اهتم ابن خلدون بميكانيكية تحديد الأسعار الحقيقية أو الجارية والتي تحكمها وتحددها قوى العرض والطلب فقد ابتعد بذلك عن النظرة المثالية السائدة في العصور الوسطى والخاصة بالثمن العادل.

خلاصة ما جاء به ابن خلدون:

هو أول من تكلم عن نظرية القيمة في ظل تعدد الأنشطة الاقتصادية وفي ظل اقتصاديات السوق والتي تحمها مبدأ الحرية الاقتصادية.

المقريزي: رغم أن المقريزي هو تلميذ ابن خلدون إلا أنه فسر الظواهر الاقتصادية بطريقة مختلفة حيث اهتم بتفسيرها على أساس نقدي ليس مثل ابن خلدون الذي فسرها على أساس القيمة، وهذا راجع إلى العصر الذي عاش فيه المقريزي حيث كان المجتمع الإسلامي (1392-1404) ينقسم إلى طبقات آخرها الفقراء الذين يعيشون على حد الكفاف (خبز وماء)، حيث فسر التقسيم غير المتوازن للدخل القومي وارتفاع الأسعار والفقر وسوء الإدارة الاقتصادية والزيادة في الكتلة النقدية التي تزيد حتما في ارتفاع الأسعار.

خلاصة ما جاء به المقريزي:

يقول المقريزي أن زيادة كمية النقود في الوقت الذي تتحدد فيه الطاقة الإنتاجية للمجتمع يؤدي إلى الارتفاع المستمر في المستوى العام للأسعار وهذا من شأنه أن يصل بالاقتصاد إلى مرحلة التضخم التي تؤثر على مستوى الإنتاج والتشغيل ودرجة الإشباع وطريقة توزيع الدخل مما يضر بمصلحة الطبقات الفقيرة وهذا يدعم وجود الاحتكارات والتكتلات سواء في الإنتاج أو التوزيع.

إذن النقود ليست محايدة بل لها تأثير فعال على جميع المتغيرات الاقتصادية (وهذا كان تمهيدا لظهور نظرية النقود المعاصرة).